عندما لا نفهم!

هل يمكن أن نجد الله وسط الظروف القاسية؟

الدكتور چيمس دوبسون

Middle East FOCUS ON THE FAMILY
من أجل العائلة

(الجزء الثاني)

هناك إجابات إلهية حتى عندما لا نفهم

قضيت سنوات طويلة أفكر في المواقف التي لا أستطيع أن أفهم فيها الله. كنت في بداية شبابي عندما اجتاحت عقلي لأول مرة الكلمة العظيمة «لماذا؟»، ولا أتذكر الآن ما الذي أتى بهذه الأفكار المزعجة إلى عقلي، لكني أعرف أنني كنت أواجه قضية تحتاج لقوة أكبر مني. مع مرور الوقت، وبالتشاور مع بعض علماء دراسة الكتاب المقدس استطعت أن أكوِّن فهمًا يشكل اعتقادي عن تلك الفترات التي يتعرض فيها الإيمان لتحديات قاسية، وقد ساعدني ما توصلت إليه أن أكوِّن فكرة جيدة عن الله، وكيف يتدخل معنا عمليًا.. وألخص هذا في أربع أفكار رئيسية:

(١) الله حاضر في حياتنا، ويعنيه ما يحدث فيها، حتى عندما يبدو أنه لا يسمعنا، أو غائب عنا.

أحيانًا ترد على خاطر الإنسان تساؤلات قد يعجز العقل البشري عن إجابتها، لكن هذا لا يعني عدم وجود إجابات صحيحة لها. فبالنسبة لنا كمؤمنين من الأفضل ألا نعتمد على قدرتنا الشخصية عند تحليل الأمور، خاصة عندما نحاول فهم شخص الله القدير! وذلك ليس فقط بسبب قصور الإدراك البشري وعدم أهليته، لكن أيضًا لأن عواطفنا لا يمكن الوثوق بها. فنحن لا يمكننا الاعتماد على عواطفنا ومشاعرنا الملتهبة في قيادة حياتنا، أو عند تقييمنا للعالم من حولنا. العواطف بطبيعتها متقلبة ومتغيرة.. فهي تكذب أكثر مما تقول الحقيقة؛ كما أن الهرمونات تتحكم فيها؛ فتتأرجح بين نقيضين من الصباح الباكر إلى المساء عندما نكون مجهدين. وأحد

مظاهر النضج العاطفي هو الاستعداد للسيطرة على المشاعر المؤقتة، والقدرة على التحكم في سلوكنا بمقتضى العقل والإرادة.

إذا كانت المشاعر والانطباعات مشكوك فيها في أفضل الأحوال؛ فلنحذر إذًا من قبول ما تُخبرنا به عن الله. مع الأسف، يبدو أن كثيرين غير واعين لهذا المصدر للحيرة والإحباط. ومن السائد بالنسبة للناس البسطاء أنهم يقبلون من أول وهلة ما "يشعرون" به تجاه الله، بالرغم من أن ما يشعرون به لا يعكس أكثر من صورة ذهنية مؤقتة. ولأن الفكر والجسد والروح متقاربون جدًا، فالواحد منهم يتأثر بضعف الآخر. على سبيل المثال الشخص المكتئب لن تتأثر حالته النفسية والجسدية فقط، بل والروحية أيضًا، وعندئذ يشعر بأن الله لا يحبه، أو لا يقبله. وبالمثل فإن أول ما يخطر على بال شخص أظهرت فحوصاته الطبية أنه يعاني من مرض خطير هو: "لماذا يفعل الله هذا لي؟" لذلك فالتداخل الشديد بين هذه العناصر البشرية الثلاثة يُضعف القدرة على التحليل الموضوعي للأمور.

هذا الفهم يصبح مهمًا جدًا عند تقييم علاقتنا بالله.. فحتى عندما يبدو الله بعيدًا عنا بآلاف الأميال، أو غير مبالٍ بأمورنا، فهو في الواقع قريب منا أكثر جدًا مما نظن. فإذا وجدت نفسك في ظروف تجعلك متحيرًا ومكتئبًا عندي لك نصيحة: لا تفترض أن صمت الله أو غيابه الظاهري دليل على عدم اهتمامه بك؛ فالشعور بعدم حضوره غير صحيح على الإطلاق! إن كلمة الله يمكن الاعتماد عليها بلا حدود مقارنة بمشاعرنا الوهمية. والله يعمل بطرقه العجيبة حتى عندما يبدو أن صدى صلواتنا يتردد في فراغ الكون، وليس هناك مَنْ يسمع.

(٢) توقيتات الله مثالية، وإن بدت متأخرة إلى حد الكارثة!

أحد أكثر الأمور المدمرة لإيماننا هو التوقيت الذي لا يتفق مع توقعاتنا المسبقة. نحن نعيش في عالم تسوده السرعة يجعلنا نتوقع استجابة فورية لرغباتنا واحتياجاتنا، لكن الله لا يعمل بهذه الطريقة. وأحيانًا يتأنى أو يبطئ في حل المشكلة التي نعرضها أمامه بشكل مؤلم؛ إلى الحد الذي يجعل المؤمن المتعجل يستسلم ويجرب شيئًا آخر. لكن قبل أن نطرح عنا إيماننا، نحتاج أن ننظر مرة أخرى إلى قصة مريم ومرثا وأخيهما لعازر كما وردت في الأصحاح ١١ من إنجيل يوحنا. كان أفراد هذه العائلة أصدقاء مقربين للرب يسوع أثناء خدمته على الأرض.. «كان يسوع يُحب مرثا وأختها ولعازر» (يو ١١: ٥)، وكان من المنطقي في ظل هذه العلاقة أن يتوقعوا من يسوع أن يُظهر لهم محبة خاصة عندما تواجههم طوارئ تهدد حياة أي شخص فيهم. ولقد تعرضوا بالفعل إلى ذلك عندما مرض لعازر وقارب على الموت، وفعلت أختاه ما يمليه عليهما المنطق؛ فأرسلتا إلى يسوع رسالة عاجلة تقول: «ياسيد، هوذا الذي تُحبه مريض» (يو ١١: ٣). ولم يكن لديهما شك أن يسوع سيتجاوب معهما في الحال.

انتظرت مريم ومرثا وهما تراقبان الطريق في توقع لمجيء يسوع، لكنه لم يأتِ! ومرت ساعات بل أيام من القلق بلا خبر من المعلِّم. واستمرت صحة لعازر في التدهور؛ وبدا واضحًا أنه سيموت.. لكن أين يسوع؟ تُرى هل وصلته الرسالة؟ ألم يعلم خطورة الحالة؟ هل هو مهتم؟ وبينما جلست الأختان متوترتين بجوار لعازر أغلق أخوهما عينيه ومات.

وامتلأت الأختان المنكوبتان بالحزن، ولابد أنهما كانتا محبطتين جدًا من يسوع؛ فقد كان في مكان آخر يصنع المعجزات لأناس غرباء تمامًا.. يفتح أعين العُمي، ويشفي العُرج، في وقت كانتا في

أمس الاحتياج إلى رعايته، لكنه كان مشغولاً فلم يأتِ. أستطيع أن أتخيل مريم تقول لمرثا بصوت خافت: "أنا فعلاً لا أفهم.. لقد كنت أظن أنه يُحبنا؛ فلماذا تخلَّى عنا بهذه الطريقة؟" وعندما انتهيا من تكفين لعازر، شيَّعاه في موكب حزين.. ولم يحضر يسوع أيضًا! ثم ودَّعا أخاهما للمرة الأخيرة، ووضعا جثمانه في القبر.

لقد أحبت مريم ومرثا يسوع بكل قلبيهما، وقد كان من المنطقي أن تكونا متضايقتين عندما جاء يسوع بعد أربعة أيام. وربما كانتا على وشك أن تقولا له: "سيدي أين كنت؟ حاولنا أن نخبرك أن صديقك كان يحتضر، لكننا لم ننجح في إثارة انتباهك. لقد جئت متأخرًا، وربما لو جئت مبكرًا لكنت قد أنقذته، لكن يبدو أن هناك أمورًا أكثر أهمية تشغل بالك!" ما قالته مريم ليسوع كان أكثر احترامًا: «ياسيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي» (يو ١١: ٣٢)، وأجهشت بالبكاء وهي تتكلم، أما الرب «فلما رآها تبكي... انزعج بالروح واضطرب» (يو١١: ٣٣).

ثم صنع يسوع أحد أكثر معجزاته قوة وإثارة عندما نادى لعازر ليخرج من القبر! الآن ترون لم يكن المعلِّم متأخرًا على الإطلاق، مع أنه بدا كذلك. لقد وصل في اللحظة الحاسمة ليتمم مقاصد الله– كما يفعل دائمًا.

مع كل الاحترام للجميع، أستطيع أن أقول أن ما حدث هو أحدى سمات هذه الحياة. ألم تلاحظوا أن يسوع غالبًا ما يأتي متأخرًا حوالي أربعة أيام؟ وعادة ما يأتي بعد أن نبكي ونقلق، ولا يوجد ما نقوله، وبعد أن نعاني من انتظار نتائج الفحوصات الطبية، وتعاكسنا ظروف العمل. "آه لو كان قد وصل في الوقت المناسب، لكنا تجنبنا الكثير من الشقاء الذي عانيناه في فترة غيابه".. ومع ذلك من المهم جدًا أن ندرك أنه في الواقع لم يكن متأخرًا أبدًا؛ لكن توقيتاته تختلف عن توقيتاتنا؛ فهو غالبًا ما يُبطئ!

من خلال دراستي للكلمة المقدسة وخبراتي الشخصية، توصلت إلى أن حسابات الله للوقت والطاقة تختلف تمامًا عنا نحن.. فمعظمنا متحمسون لاستغلال كل ثانية من وجوده في سبيل تحقيق أهداف تعود عليه بالنجاح، لكن الرب أحيانًا يسمح بأن "تتبدد" سنوات من حياتنا –أو هكذا تبدو– دون أن ينظر للوراء. من الواضح أنه لا توجد "طوارئ مُلحة" في خطة الله للأشياء، وهو يتدخل طبقًا للترتيب الذي وضعه.

تأملوا المواهب البشرية التي أُهدرت بالموت أو الإعاقة عبر السنين. لماذا يضع الله موهبة غير عادية في أشخاص تُقصَّر أعمارهم بالموت؟ لا أعرف!

على النقيض من ذلك، هناك مَنْ منحهم الله عمرًا مديدًا بالرغم من عصيانهم لله. مثلاً نقرأ في(٢ ملوك ٢١) عن «منسى» ابن الملك الصالح حزقيّا، والذي ربما كان أكثر الملوك فسادًا وطغيانًا في تاريخ بني إسرائيل. لقد اعتلى منسى الحكم وعمره ١٢ سنة، و«عمل الشر في عيني الرب» (٢مل ٢١: ٢) كل أيام حياته؛ وقدَّم ابنه محرقة، ومارس السحر، ولجأ إلى استشارة الأرواح والتوابع. و«أكثر عمل الشر في عيني الرب لإغاظته» (٢مل ٢١: ٦)، وبسبب شروره

جاءت دينونة الله على أجيال لاحقة.. ولكن ليس على جيله. وحكم لمدة ٥٥ عامًا، ثم مات ودُفن مع آبائه.. وهذه نهاية القصة! ليس لديَّ شك أن عدل الله الكامل سيقتص منه في يوم الدينونة، لكن يبدو غريبًا أن الله سمح له لمدة ٥٥ عامًا بأن يقتل أناسًا أبرياء، ويقدم أبناءه ذبائح بشرية، ويجدِّف على اسم الله. شيء يصعب فهمه!

ما الذي يمكن أن نستنتجه من هذه المتناقضات الظاهرية سوى أن نقول: "دع الملك للمالك" عندما لا يُريدنا أن نفهم. ويمكننا أن نقول بملء الثقة أنه بينما تختلف مقاصده وخططه عما نفكر فيه نحن، فهو عادل بما لا يُقاس، وتوقيته مثالي دائمًا؛ كما أنه يتدخل في اللحظة المناسبة من أجل خيرنا في النهاية. وحتى يأتي الوقت الذي فيه سنسمع منه، فمن الحكمة أن نصمت!

(٣) لأسباب من المستحيل شرحها، قيمة البشر عند الله ثمينة جدًا!

أحد أكثر المفاهيم المثيرة التي وردت بالكتاب المقدس هي إعلان الله أنه يعرف كل إنسان بشكل شخصي، وأننا في فكره نهارًا وليلاً. وببساطة ليس هناك ما يساعدنا على فهم آثار هذه المحبة التي في قلب ملك الملوك ورب الأرباب لأجلنا.. فهو كُلي القدرة، وكُلي المعرفة، إله مهوب وقدوس من الأزل وإلى الأبد.. فلماذا يهتم بنا، وباحتياجاتنا، وبخيرنا ومخاوفنا؟ إذا كنا نناقش مواقف لا يبدو الله فيها مفهومًا، إلا أن اهتمامه بنا نحن البشر الزائلين هو أكثر ما يصعب أن نعلله على الإطلاق.

ولعل داود النبي كان يفكر في نفس القضية عندما كتب يقول: «مَنْ هو الإنسان حتى تذكره؟ وابن آدم حتى تفتقده؟» (مزمور ٨: ٤). الله لا يهتم بكل واحد منا فحسب، لكنه يصف نفسه كأب لنا جميعًا.. «فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء» (لوقا ١١: ١٣)، ويقول سفر المزامير: «كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه» (مزمور ١٠٣: ١٣).

كأب لطفلين أصبحا ناضجين الآن، أستطيع أن أفهم كيف يشعر الله نحونا.. زوجتي وأنا يمكن أن نضحي دون تردد بحياتنا من أجل أولادنا إذا لزم الأمر. نحن نصلي من أجلهم كل يوم، ولم يغيبوا عن ذهننا أبدًا. ولكم نشعر بالضعف أمام آلامهم! هل حقًا يُحب الله عائلته من البشر أكثر بما لا يقاس مما يمكننا نحن "الأشرار" أن نعبِّر عنه لأولادنا.. دمنا ولحمنا؟ هذا ما تعلِّمه لنا الكلمة المقدسة. لابد أن هناك أوقاتًا يشعر الله فيها بعمق ألمنا، ويتألم معنا بنفس القدر. ألا ينطبق هذا على أب يُحب بلا حدود؟ وبالتالي لابد أننا نؤلمه عندما نقول له في حيرتنا: "يارب، كيف سمحت لهذا الشيء بأن يحدث؟ ولماذا أنا؟ لقد ظننت أنه يمكنني الوثوق بك، وأنك صديقي!" تُرى كيف يشرح الله لنا، ونحن بشر محدودون، أن هذا الألم ضروري، وأن له هدفًا، وأنه هناك إجابات عن مآسي الحياة؟ لعل الله ينتظر اليوم الذي فيه سيجعلنا نفهم ما كان يحدث في وقت تجاربنا وضيقتنا، ولعله يفكر باستمرار في آلامنا ومتاعبنا.

قد يشك بعض القُراء في أن الإله كُلي القدرة، والمنزَّه عن الضعف والاحتياج يمكن أن يتعرض لهذا النوع غير المباشر من الألم.. فلا أحد يستطيع أن يؤكد هذا! نحن نعرف بالتأكيد أن يسوع قد اختبر كل المشاعر الإنسانية، وقد «انزعج بالروح واضطرب» لما رأى مريم تبكي على لعازر، ولأنه هو والآب واحد فمن المنطقي أن الله الآب يهتم بعائلته البشرية ويشاركها أحزانها في أوقات الألم التي تجتازها.

(٤) إن ذراعك أقصر من أن تُصارع مع الله.. فلا تحاول ذلك!

إن عقل الإنسان ضعيف جدًا، ولا يمكن أن يرتقي إلى مجادلة الخالق. وإذا كان الذكاء والإدراك البشري لا يمكن الاعتماد عليهما في تقييم واقعنا اليومي الذي نعايشه، فكم يكون عجزه لتقييم إله الكون اللامحدود؟! إن جهودنا في استيعابه أو فهمه بعقولنا هي بلا فائدة، كما أن كبرياء البشر في تجاهلهم أو تحديهم لحكمة الله القدير تكون مروعة أحيانًا.

حاول أيوب أن يسأل الله، فأجابه من التاريخ، وقال: «مَنْ هذا الذي يُظلم القضاء بكلام بلا معرفة؟ أُشدد الآن حقويك كرجل، فإني أسألك فتعلمني. أين كنت حين أسست الأرض؟ أخبر إن كان عندك فهم. مَنْ وضع قياسها؟ لأنك تعلم! أو مَنْ مَدَّ عليها مِطمارًا (خيط القياس)؟ على أي شيء قرَّت (استقرت) قواعدها؟ أو مَنْ وضع حجر زاويتها، عندما ترنمت كواكب الصبح معًا، وهتف جميع بني الله؟» (أيوب ٣٨: ٢ – ٧) واستمر الله في هذا الحديث مع أيوب حتى استقام فكره، ثم أضاف الرب هذه الكلمات: «هل يخاصم القدير موبخه (اللائم)، أم المحاج (المشتكي) الله يجاوبه؟» (أيوب ٤٠: ٢). ولقد استوعب أيوب الدرس، وأجاب قائلاً: «ها أنا حقير، فبماذا أجاوبك؟ وضعت يدي على فمي. مرة تكلمت فلا أجيب، ومرتين فلا أزيد» (أيوب ٤٠: ٤ – ٥).

لقد مررت بأوقات ارتكبت فيها نفس خطأ أيوب، حيث كنت ألح على الله للحصول على شيء طلبت منه أن يفعله لي.. وكان هذا الطلب متفقًا مع وصاياه، حتى شعرت أن ذلك ضمان لاستجابة الله لصلواتي. كنت أصلي كل يوم لمدة أسابيع، ساجدًا على وجهي، مترجيًا الله أن يمنحني سؤل قلبي الذي بدا لي في غاية الأهمية.. ومع ذلك فقد استجاب الله بـ "لا" واضحة! ولم يشرح لي لماذا، لكنه ببساطة أغلق الباب. في البداية تأذَّت مشاعري، ثم أصبحت غاضبًا. وبالرغم من علاقتي بالله لم أستطع أن أمنع إحساسي بأنه قد تخلى عني! وبعد مرور سنتين تغيَّرت أحوالي، وبدا لي الشيء الذي كنت أصلي لأجله مختلفًا تمامًا. في النهاية أدركت أنه لو كان الله استجاب لما طلبته آنذاك لكنت تعيسًا الآن. لقد كان يُحبني بما يكفي لكي يرفض طلبي حتى عندما كنت أُصر عليه.

لابد أن ندرك أن معظم إحباطاتنا الروحية لا تنتهي باستنارة تجعلنا نقول: "آه، الآن فهمت ما كنت تعمله يارب!" فهناك إحباطات يجب أن نضعها تحت عنوان: "أمور لا نفهمها"، ونتركها هناك. وفي مثل هذه الحالات يجب أن نكون شاكرين؛ لأن الله يفعل لنا الأفضل، سواء كان ما يفعله يتفق أو يتعارض مع رغباتنا؛ فكل أب صالح لابد أن يقول "لا" أحيانًا لما يطلبه منه ابنه.

إن رؤيتنا لله ضيقة للغاية؛ فنحن البشر نعجز عن أن نتخيل مقدار قدرة وحكمة الله المكتوب عنه: «لك يارب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد، لأن لك كل ما في السماء والأرض. لك يارب الملك، وقد ارتفعت رأسًا على الجميع. والغنى والكرامة من لَدُنك (من عندك)، وأنت تتسلط على الجميع، وبيدك القوة والجبروت، وبيدك تعظيم وتشديد (عزيمة) الجميع.» (١أخبار ٢٩: ١١ – ١٢)

إن كنا نفهم بحق عظمة هذا الإله، وعمق محبته لنا، سنستطيع أن نقبل بكل تأكيد تلك الأوقات التي يتعارض موقفه فيها مع المنطق والإدراك البشري.. هذا ما يجب أن نفعله. وبينما نتوقع حدوث تجارب محيرة في رحلة حياتنا، فلنرحب بها كفرص رائعة لتنمية إيماننا، ولنتمسك أكثر بإيماننا، الذي بدونه يستحيل إرضاء الله. لا تستسلم أبدًا لـ "حاجز الإحساس بالخيانة"؛ لأنه أكثر أسلحة إبليس تأثيرًا علينا.. ولنتطلع إلى حوار طويل مع الله عندما نصل إلى الجانب الآخر من النهر، أما الآن فلنواصل سعينا وجهادنا على الأرض مدركين أن ذراعنا أقصر من أن تصارع الله.

الله سينقذنا.. لكن ماذا لو لم يفعل؟

هناك بعض الأسئلة الهامة التي تدور حول ما ناقشناه على الصفحات السابقة، والتي لابد أن نتعرف عليها، مثل: ما هو دور الله في الأحداث التي تسبب الحيرة وخيبة الأمل للمؤمنين؟ ما معنى الصلاة من وجهة نظرك؟ هل ما قاله الرسول يعقوب في رسالته «طلبة البار تقتدر كثيرًا في فعلها» (يع ٥: ١٦) صحيح؟ هل كان الرب يسوع يتحدث إلينا نحن عندما قال: «اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم» (مت ٧: ٧)؟ لقد أسست حياتي على صحة هذه الوعود.. فهي كلمات الله التي سجلها كُتاب الكلمة المقدسة مسوقين بالروح القدس؛ فإيماننا كمسيحيين مؤسس على كلمة الله التي لا لبس فيها. تأملوا معي الآيات التالية: «اطلبوا الرب وعزَّه (قوته). التمسوا وجهه دائمًا» (١أخبار ١٦: ١١)؛ «لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر، لتُعلم طلباتكم لدى الله» (فيلبي ٤: ٦)؛ «صلُّوا بلا انقطاع. اشكروا في كل شيء، لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم» (١تسالونيكي ٥: ١٧– ١٨).

من الواضح أن الله لا يقدِّر الصلاة فقط، لكنه يُوصينا أيضًا بأن يكون لنا تواصل شخصي معه. وياله من امتياز رائع! هل فكرت من قبل في هذه العطية التي منحنا إياها إلهنا القدير؟ نحن لسنا بحاجة لنحدد ميعادًا حتى نتحدث إليه، وهو قد يُرجئ لقاءنا معه إلى يوم آخر عندما يكون جدول أعماله مزدحمًا.. بل على النقيض، نحن مدعوون لنتقدم بجرأة إلى محضره في أي وقت من الليل أو النهار. إنه يسمع الأنات الضعيفة التي تخرج من صدر المريض، والوحيد، والمنبوذ في العالم. وكل واحد منا معروف له باسمه ومحبوب، بالرغم من نقائصنا وفشلنا. حقًا إن دعوة الله لنا لنصلي هي تعبير ثمين عن عمق محبة الخالق التي لا توصف، وعن عظمة مراحمه على البشر.

الآن دعوني أخوِّض في مياه أكثر عمقًا لأقول إنه بالرغم من مئات النصوص الكتابية التي تُخبرنا أن الله يسمع ويستجيب لصلواتنا، إلا أنه من المهم أن نقر بما قد لاحظه أغلبنا بالفعل.. وهو أن الله لا يفعل كل شيء نطلبه بالطريقة التي نرغب فيها. ربما تمر سنوات قبل أن نرى تحقيقًا لمقاصده، وهناك بعض الحالات تكون استجابته بـ "لا" أو "انتظر". وللأمانة، هناك بعض الأوقات التي لا يجيب فيها بشيء على الإطلاق! وكما أشرنا سابقًا فكثير من المؤمنين يتحيرون، ويُجرحون، ويهتز إيمانهم في مثل هذه المواقف.

لنتخيل للحظة ما يمكن أن يكون العالم عليه إذا نفذ الرب بالتمام ما نطلبه منه في كل مناسبة! بداية، سيعيش المؤمنون في الأرض عمرًا أطول جدًا من غير المؤمنين، ربما بمئات السنين! سيعيش باقي الناس بأجساد مريضة، بينما يحيا المسيحيون وأولادهم في عالم من الرفاهية بمعزل عن الآخرين.. فلا تصيبهم آلام الأسنان، أو الحصوات الكلوية، أو قصر النظر! ستنجح كل تجارتهم وأعمالهم، وسيعيشون في بيوت جميلة... إلخ. وبالتالي ستنهار أسس العلاقة بين الله والإنسان، وسيسعى الناس لعلاقة صداقة مع الله من أجل مصالح ومنافع شخصية، بدلاً من التجاوب معه بقلب تائب ومحب. وأكثر من ذلك فإن أكثرنا جشعًا هو مَنْ سيسعى جاهدًا للتمتع بالحياة المسيحية. والأهم فإن هذه الدلائل القوية على قدرة الله العظيمة ستبدد احتياجنا للإيمان. كما كتب الرسول بولس في (رومية ٨: ٢٤): «لأننا بالرجاء خَلصنا. ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضًا؟»

إذًا فإيماننا ليس مرتكزًا على معجزات أو عجائب، لكن على الله كُلي السلطان، وضابط الكون، والذي لن

يصنع المعجزات لينال إعجابنا. لقد وبَّخ الرب يسوع أولئك الذين طلبوا منه أن يصنع آيات لمجرد الاستعراض قائلاً: «جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطى له آية» (متى ١٢: ٣٩). يريدنا الرب أن نؤمن به حتى مع غياب البراهين، كما قال لتوما: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يوحنا ٢٠: ٢٩). نحن نعبد الله ليس لأنه يُلبي لنا مطالبنا، لكن لأننا نثق في حضوره في حياتنا، وأنه هو في النهاية الذي يحدد ما هو الأفضل لنا. نحن لا نستطيع أن نرى المستقبل، ولا نعرف خطة الله لنا؛ بل كل ما نراه هو الصورة الأصغر، وليس بوضوح كامل. لذلك في ظل محدوديتنا هذه يبدو أنه من الكبرياء أن نُملي على الله ما يجب أن يفعله، بدلاً من أن نجعل طلباتنا معروفة لديه، ثم نسلِّم حياتنا لمشيئته الإلهية.

لقد قدم الرب يسوع نفسه مثالاً يُجسد لنا الخضوع عندما طلب من الآب في بستان جثسيماني أن يرفع عنه كأس المهانة والموت. لقد كان يعرف تمامًا ما معنى الصلب، وكانت ضغوط آلامه النفسية شديدة جدًا؛ حتى أن قطرات دم كبيرة اخترقت مسام جلده.. هذه الظاهرة تُسمى طبيًا "الوجه الدموي"، وتحدث عندما يقع الإنسان تحت ضغوط حادة، وإجهاد شديد. ومع ذلك، في وسط آلامه صلى قائلاً: «... لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لوقا ٢٢: ٤٢).

هناك الكثير من النماذج لهذا التسليم للسلطان الإلهي.. لقد طلب الرسول بولس من الله في ثلاث مناسبات منفصلة ليرفع عنه ما كان يلطمه، والذي وصفه بأنه «شوكة في الجسد»؛ وفي كل مرة كانت الإجابة بـ "لا".. ثم أتت استجابة الله: «تكفيك نعمتي؛ لأن قوتي في الضعف تكمل» (٢كورنثوس ١٢: ٩).

كل منا تتحدى حياته عيوب وأوجه قصور، ويستطيع الله أن يُزيلها كلها بكلمة منه؛ لكنه عادة يتركنا نجاهد مع ضعفاتنا؛ ليكشف لنا عن قوته الإلهية. هذا مفهوم مأخوذ مباشرة من كلمة الله على فم الرسول بولس: «ولكن لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفية؛ ليكون فضل القوة لله لا منا» (٢كورنثوس ٤: ٧).

يبدو لي أن كل مؤمن لديه مشكلة واحدة على الأقل بسبب آنيته الخزفية (الفخارية).. والتي يمكن أن تكون أحدى المنغصات التي تُزعجه باستمرار، أو مرضًا ما لم يسمح الله بشفائه، أو كل ما يأتي بعد "لو أن... ".. لو أن الله فعل هذا، أو أزال ذاك. لكن شيئًا لا يحدث، وتستمر المشاكل. فيما يتعلق بهذه الضيقات يكرر الرب بهدوء ما قاله لبولس منذ ما يقرب من ألفي سنة: "تكفيك نعمتي، لأن قوتي في الضعف تكمل."

اسمحوا لي أن أقدم صياغة هذه الآية بحسب فهمي لها.. أعتقد أن الله يقول لنا: "كل منكم مطلوب منه أن يتحمل بعض الأشياء التي تسبب في حياته إزعاجًا، وألمًا، وحزنًا؛ فهذا جزء من حياتكم عليكم أن تقبلوه وتتعايشوا معه، وأنا سأعطيكم النعمة لتتحملوه!" وهكذا تستمر الحياة في حالة من عدم الكمال النسبي.

نحن نتعلَّم التوازن عندما تضغط علينا الحياة.. يقول الرسول بولس: «تعلَّمت أن أكون مكتفيًا بما أنا فيه... تدربت أن أشبع وأن أجوع، وأن أستفضل وأن أنقص» (فيلبي ٤: ١٢).. إنه سلام داخلي مكتسب.

لربما لاحظت أن الحياة ليست عادلة طوال الوقت؛ فهي تدلل البعض بينما تسحق آخرين. كيف نستطيع أن نفسر هذا الظلم الواضح؟ كيف يسمح إله غير محدود في محبته وعدله أن يعيش بعض الناس في مأساة مدى حياتهم، بينما يتنعم البعض الآخر بكل ما هو جيد وكامل؟ وماذا لو أن هذا الإنسان التعس هو طفل صغير؟ حسنًا، أعرف الإجابة التي يقدمها اللاهوتيون.. إن المرض والموت قد أتيا إلى العالم كنتيجة للسقوط، وأننا كلنا تحت حكم الموت، الذي يأتي إلى بعض الناس قبل غيرهم. إنني أفهم وأقبل هذا التفسير، حتى وإن تركنا مع شعور بالاضطراب الداخلي.

باعتراف الجميع، هذا التفسير لمشكلة الألم غير مُقنع، خاصة عندما ننظر في وجه طفل يتألم! ومع ذلك، فهذا أفضل تفسير يمكننا أن نخرج به. لقد أشرت أننا يمكننا أن نستكشف فكر الله إلى حدود، ثم بعد ذلك ستنفذ قوانا العقلية بكل تأكيد؛ لأن أفكاره غير معروفة لنا، بل ويصعب على العقل البشري استيعابها. إن الله لا يضع نفسه في موضع مساءلة أو استجواب أمام الإنسان، ولن يفعل. فلم يرد في الكتاب المقدس ما يُشير إلى أن الله تحدَّث مرة مدافعًا عن نفسه، أو طالبًا موافقة أو استحسانًا على أفعاله، بل يقول ببساطة: «ثقوا بي». وفي حواره المطول مع أيوب، لم يقدم يهوه اعتذارًا واحدًا، كما لم يحاول أن يشرح الضيقات التي ألمت بعبده أيوب. ومع ذلك فإن الكتاب المقدس يُخبرنا بوضوح أن الله محب، وعطوف، ورحيم، وطويل الأناة، وصبور، وغني بالمراحم الأبوية،... إلخ. والآن ماذا نحن فاعلون عندما تضايقنا مواجهة أسئلة لا أجوبة لها؟

إما أن نواصل الإيمان بصلاح الله، ونؤجل أسئلتنا حتى نقابله وجهًا لوجه؛ أو نغرق في الشعور بالمرارة والغضب بسبب المعاناة المحيطة بنا.. ليس هناك بديل آخر! كما ترون، نحن نعود حتمًا مرة أخرى إلى ضرورة الإيمان.

لعل قصة شدرخ وميشخ وعبدناغو التي وردت في سفر دانيال الأصحاح الثالث أفضل ما نختم به هذا الجزء. لقد جلبوا على أنفسهم غضب الملك نبوخذ نصر عندما رفضوا السجود للتمثال الذي أقامه، وكان الملك قد أعلن بوضوح أنه في حالة عصيانهم لأوامره سيلقون في «أتون النار». أما جوابهم على هذا التهديد بالقتل فكان بكلمات من أروع ما سطر الوحي الإلهي: «هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن يُنجينا من أتون النار المتقدة، وأن ينقذنا من يدك أيها الملك. وإلا فليكن معلومًا لك أيها الملك، أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته» (دانيال ٣: ١٧ – ١٨).

أي شجاعة أظهرها هؤلاء الشباب في مواجهة الموت المحقق؟! ما أعظم قناعاتهم، وأعمق إيمانهم! كلمة "وإلا" جاءت في الأصل بمعنى "وحتى إن لم ينقذنا".. حتى وإن كان الأمر يعني موتنا، فإننا سنعبده هو في كل الأحوال.

هذه هي الوصفة الكتابية في أبسط صورها: إن الله يستطيع أن يشفيني من المرض الذي يتملك جسدي، ولكن إذا لم يفعل سيظل إيماني به حيًا. إن الله يستطيع أن يصحح إعاقة ابني، أو يحفظ تجارتي من الإفلاس، أو يُعيد ابني من الحرب بسلام.. لكن إن لم يفعل سأظل واثقًا فيه.

هذا ما قصده البار أيوب حينما قال: «هوذا يقتلني. لا أنتظر شيئًا.» (أيوب ١٣: ١٥) والمعنى الأصلي للنص أنه حتى إذا كان لا أمل لي في الحياة، فإني سأظل أثق فيه وأتحدث معه!

وهذا ما قصده الرسول بولس عندما قال: «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا» (فيلبي ٢: ٥).. ما هو هذا الفكر؟ «إذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب.» (عدد ٨) إن هذا التخلي والطاعة والتسليم لمشيئة الله هو ما يطلبه الله من شعبه، حتى عندما تكون الظروف خارجة عن السيطرة. فهو يستطيع أن ينجي، ولكن إذا لم يفعل...!

لكل إنسان يقرأ هذه الكلمات وقد أُصيب بمرض مزمن أو خطير، ويا كل أب يحيط الخطر بأحد أبنائه، ويا كل أرملة تواجه الحياة بمفردها.. إليكم كلمة تشجيع أخيرة. هل تتذكرون نبوخذ نصر عندما نظر إلى أتون النار المتقدة وإذ به يرى أربعة رجال بدلاً من ثلاثة، والرابع شبيه ابن الآلهة؟ من المشجع أن نعرف أن شدرخ وميشخ وعبدناغو هم فقط الذين خرجوا من أتون النار، أما الرابع الذي نؤمن أنه كان المسيح فقد بقيَ هناك ليعزيني ويعزيك، ويحميني ويحميك عندما نجتاز نحن في أتون التجارب المحرقة. إنه لن يتخلى عنك، ولكن لن يُجنبك الضيقات أيضًا!

يصدر الجزء الثالث والأخير من كتيب «عندما لا نفهم!» مع العدد التالي لجريدة وطني.

لمزيد من المعلومات عن مطبوعاتنا اتصل بنا:

٠٢ –٢٢٧٠٩٧٢١ ٠٢ –٢٢٧٠٩٨٩٦

www.FocusOnTheFamily.me

© الناشر: **إيجلز جروب**

(مأخوذة بإذن خاص من المؤلف، وجميع الحقوق باللغة العربية محفوظة للناشر.)